الازدواجية والثنائية اللغوية في الجزائر

رشيد فلكاوي، المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة، الجزائر

ملخص

يسلط هذا المقال الضوء على وضعية اللغات المتعايشة في الجزائر، عن طريق ضبطها وفق المقاربات التي جاء بها علماء علم اللغة الاجتماعي أمثال: "فرغسون"، "فيشمان"، "كودريك"، المتمثلة في الازدواجية والثنائية اللغوية وعلاقتهما بالظواهر اللغوية الأخرى كالتداخل اللغوي، المزج والتحول وما ينتج عنهم من آثار تنعكس سلبا أو إيجابا - حسب درجة إتقان اللغات - على الأداء الكلامي للفرد الجزائري، تبين هذه الآثار من خلال رصد اللغات: الأمازيغية، العربية والفرنسية إضافة إلى اللهجات والتأديات في مختلف الأماكن والمواقف: كالمدارس (عبر مختلف الأطوار التعليمية) والإدارات العامة والخاصة، من أجل الوصول إلى نتائج هذه الممارسات اللغوية المتمثلة إما في التعايش أو الصراع بين هذه الأنماط.

Resumé

Cet article traite de l'etat des langes cohabitantes en Algérie en les decrivant selon les approches avancées par les sociolinguistes tels que Fergusson, Fishman, Coudrec , notamment le bilinguisme et la diglossie et leurs rapports avec d'autres phénomènes linguistiques tels que l'interférence linguistique, le code- mixing et le code-switching dont les traces affectent la performance verbale de l'individu algérien, positivement ou négativement selon le degré de la maîtrise de la langue. Ces traces démontrent à travers la localisation des langes: Tamazigth, Arabe, Français et les dialectes et sous-dialectes dans les différents lieux et situations comme l'école (selon les différents paliers d'éducation) et les administrations générales et privées pour but d'aboutir aux résultats de ces pratiques linguistiques incornées, ou dans la cohabitation ou dans le conflit entre ces prototypes.

❖❖❖

في سبيل التقديم

باتت الحاجة في البحث عن وضعية اللغات ضرورة ملحة في عصرنا الحاضر، بل أصبحت من أولويات البحث اللغوي، نظرا لما يعتريه من إشكاليات حقيقية تمس واقعها، بعد أن كانت الدراسات اللغوية تولي تاريخ اللغات اهتماما بالغا من أجل الوصول إلى أصلها، وبالتالي إمكان تصنيفها ضمن أسر لغوية. وتبقى تحتفظ بنتائج هذه البحوث بين دفتي الكتب، لا يستفاد منها في التطبيقات اللغوية فلم يعد البحث في أصل اللغات مجديا، إنما أصبح من فضول البحث استحالة الوصول إلى أية نتيجة فيه مهما كانت الجهود أو طال الزمن، لانعدام الأدلة وكل ما توصل إليه الباحثون عبارة عن أدلة عقلية أو تخمينية، لا غير، فالتحريات والتقيبات تصل إلى جدار من الزمن المظلم لا تستطيع اختراقه، وإذا اخترقته تخيلا فلن تجد سوى فضاء معتم لا أثر فيه ولا صوت."[1]

بالرغم من أهمية الدراسات التاريخية اللغوية، والتي تسلط الضوء على فترات متعاقبة زمنيا، إلا أن هناك جانبا مهما يتلخص فيما ما يحدث في العصر الحديث من تغيرات وتطورات مست أشكال ومجالات الحياة بصفة عامة، واللغة ـ باعتبارها ظاهرة اجتماعية ـ بصفة خاصة. استلزم الأمر فحص ما تتعرض له، سواء أكان إيجابيا أو سلبيا، من أجل فهم وضعيتها التي تتحجب عن عامة الناس، وبالتالي يسيئون إليها من حيث لا يشعرون. وتتمثل مظاهر هذه الإساءة في الأداء اللغوي للغة من اللغات، أما إن كانت الإساءة عن قصد، نتيجة ترسبات نفسية داخلية لا شعورية فالأمر أعظم.

استطاعت الازدواجية والثنائية اللغوية في الجزائر، التي تظهر بأشكال مغايرة بين العربية والفرنسية، العربية والأمازيغية، الأمازيغية والفرنسية، أو بين لغة من هذه اللغات ولهجاتها أن تشتت الأداء الكلامي، بل "أنها سبب ظهور انقسام اجتماعي على أساس ثقافي لاسيما على مستوى النخب، فالانقسام الثقافي المتأتي من ممارسة لغوية قائمة على ثنائية تنازعية أدى إلى اهتزاز المرجعيات المشتركة للمجتمع، لهذا السبب تقدم الدراسات ذات الطابع الاستراتيجي الجزائر كمجتمع يعوزه الانسجام إذا ما قيس بالمجتمع التونسي أو الليبي مثلا."[2]

يتميز المجتمع العربي بصفة عامة والجزائري بصفة خاصة بالتعدد اللغوي واللهجي، وما يميز هذا التعدد والتنوع من فرز لغوية، فدخل بذلك الوضع اللغوي مرحلة جديدة، وأصبحت أسبابه معقدة لتعقد مظاهر الحياة في عصرنا الحاضر، شكلت هذه المستجدات حافزا عند الباحثين واللغويين للنظر في هذه القضية، عن طريق بذل الجهود أكثر مما كانت عليه في العصور السابقة من أجل تشخيص هذا الوضع، للوصول إلى بناء نموذج يحفظ اللغة ويضمن لها سلامتها.

على ضوء المعطيات السابقة يندرج مقالنا هذا، والذي يبحث في وضعية اللغات (العربية، الأمازيغية، الفرنسية) ولهجاتها وتأدياتها المختلفة، من خلال مصطلحين لسانيين يجمعهما هما: "الازدواجية اللغوية" bilinguisme و"الثنائية اللغوية" diglossie من أجل تصحيح الأداء اللغوي، لأن اللغة في عصرنا الحاضر تجاوزت المفهوم التقليدي القائل بوظيفتيها الاتصالية والتبليغية، إلى استعمالها كأداة للغزو والهيمنة بوسائط ووسائل متعددة.

يتميز المجتمع الجزائري على مستوى الواقع اللغوي بالتعددية، والذي ساهمت في خلقه الازدواجية والثنائية، تظهر فيه اللغات واللهجات والتأديات المختلفة بنسب متفاوتة، وهو ما خلق وجود أنماط لغوية كثيرة، وهي:

1. لغة المنشأ (عربية دارجة أو أمازيغية)، وفي الدارجة والأمازيغية تأديات مختلفة، تختلف من منطقة لأخرى؛
2. العربية الفصيحة (لغة المدرسة)؛
3. الفرنسية (لغة المدرسة)؛
4. الهجين اللغوي الذي يسمع في التجمعات السكانية؛[3]

وبالتالي فإن ضبط هذه اللغات في ظواهر الثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية، وحتى في التعددية اللغوية يحصل فقط في الناحية النظرية، أما في الواقع فإن مجموعة من الظواهر الأخرى

المصاحبة للتأديات المختلفة تتجسد في المجتمع، حيث نجد أنفسنا أمام مجموعة من الظواهر لا يكتشفها إلا المتفحص والمعايش لما يحدث فعلا للغة أو اللغات في المجتمع.

تتوزع اللغات في المجتمع الجزائري وتتقمص أدوارا متباينة، على مستوى الاستعمال الشفهي والكتابي، وفي أمكنة مختلفة، و"هكذا نجد أنفسنا أمام لغات أربع، ولكل منها نصيبه في المجتمع من الاستعمال، وإن لغة المنشأ (الأم) عادة لغة شفاهية، وهي المتمكنة أكثر في المجتمع واللغتان العربية الفصيحة والفرنسية مكتوبتان، وليس لهما نصيب معتبر في الاستعمال."[4] والنتيجة أن الفرد الجزائري لا يتقيد بلغة واحدة بسبب عدم الاستعمال الدائم لها. وعلى نفس المسار يتحول من لغة إلى لغة أخرى، أو من لهجة إلى لغة أو العكس، حسب الموقف الذي يكون فيه.

قبل الخوض في الحديث عن الازدواجية والثنائية اللغوية لابد من توضيح مجموعة من النقاط المهمة جدا:

أولا: لا يمكن فهم اللغة بعيدا عما يجري في المجتمع.[5] تبرز اجتماعيتها في ثلاث خصائص حددها المختصون في:

1. تمثلها في نظم يشترك في إتباعها أفراد المجتمع ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم الجمعية وتنسيق العلاقات التي تربط بينهم.
2. إنها نتاج العقل الجمعي وليست نتاج فرد تخلقها طبيعة المجتمع وتفاعله ومقتضيات العمران.
3. لا يمكن للفرد أن يخرج عليها أو على نظامها وإذا خرج واجه عقاب المجتمع وازدراءه وقد تكون عقوبته مادية وقد تكون معنوية بمقاطعته والحول بينه وبين ما يريده وتحيل ألوانه لونا من ألوان العبث."[6] فاللغة ليست من صنع الفرد، وإنما تتشكل بفعل الاتفاق والاصطلاح والمواضعة بين الجماعة البشرية، إنها نظام اجتماعي لا يمتلكه الفرد لوحده، ولا يستطيع أن يتصرف فيه كما يريد، ولهذا تعمل اللغة على توحيد أفراد المجتمع بالرغم من اختلاف أشكالهم وتصرفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

إن فهم المجتمع - من زاوية نظر علم الاجتماع اللغوي - يؤدي إلى فهم اللغة، وبخاصة وضعيتها، بعدما طبع كل شعب بالانجذاب نحو لغته والنظر إليها نظرة اعتزاز. واعتبار كل شعب أن لغته الأم هي اللغة الأنموذج، إذ سادت النظرة أن "الشعب الواعي الشريف العفيف يكبر شأن لغته القومية، ويحرص عليها كما يحرص على عرضه، متى ذلت هي ذل هو، اللغة الأم هي أم اللغات التي يتكلمها المواطنون سميت قومية لأن بلاغة الفكر لا تستقيم إلا بها، وفصاحة اللسان لا تقوم إلا عليها، فعلاقة الشعب بلغته القومية هي أكثر من شكل قاموس".[7] لأنها جزء منه بل هي عنوان تواجده، إنها قضية كباقي القضايا الاجتماعية الأخرى، "وليست القضية اللغوية قائمة في فراغ وليس حلها في نهاية التحليل لغويا خالصا، فهي ممتدة في حياة المجتمع تؤثر فيها وتتأثر بها، وهي مرتبطة ارتباطا عضويا بالمؤسسات القائمة ولهذا يتطلع بعض العاملين في حقل اللغة، وبعض أهل النظر إلى السلطة التي ينتظم إشرافها كل جهة، وتملك القدرة التنفيذية على الانجاز الحاسم الشامل."[8]

تؤثر اللغة في المجتمع ويتأثر بها، لأنها مظهر من مظاهر تجليات الإنسانية في الناطق بلغة من اللغات، فهي "مظهر من مظاهر السلوك الإنساني إن لم تكن أهم تلك المظاهر جميعا، نظرا إلى أننا نضطر في معظم الأحيان لاستعمالها لترافق مظاهر السلوك الأخرى غير اللغوية وتتفاعل معها"،[9] إذ بما أن اللغة سلوك فهي تظهر مباشرة لتصنف على أنها ظاهرة اجتماعية بعد أن قيدت في عهد الدراسات السوسورية الحديثة بالدراسة الداخلية البعيدة عن أماكن تواجدها.

تختلف اللغات فيما بينها باختلاف نظرة متكلميها إلى الواقع، ومدى استطاعتهم على وصفه بكل ما يحمله من أفكار، وهذه النظرة قد أثبتها الباحثون في مجال اللسانيات منذ "هيمبوليت" مرورا بـ "دي سوسير" ووصولا إلى علماء اللغة الاجتماعيين، فاللغات "تختلف في مدى مرونتها وقدرتها على استيعاب الأفكار والتعبير عنها وتحليلها للخبرات المختلفة للناطقين بها، ذلك أنه كما اختلفت الأساليب التعبيرية من لغة إلى أخرى، تختلف كذلك اللغات فيما تحويه كل منهما من خبرات ترجع إلى الثقافة النوعية لتلك اللغة فمثلا لكل لغة اصطلاحات خاصة بها، وقد لا يوجد ما يقابلها في اللغات الأخرى، والفرد يمتص هذه الاصطلاحات مع الممارسة العملية في بيئته الاجتماعية منذ الطفولة حتى تصبح جزءا من كيانه اللغوي،"[10] إلا أن عامة الناس لا يفهمون هذه الاختلافات في الخصائص اللغوية التي تتمتع بها كل لغة، إذ أنها تكون مع أو ضد اللغة في مجابهتها للواقع الذي تعيش فيه وتعبر عنه، وهذه المتغيرات كلها في صالح اللغة العربية الفصيحة لولا تقاعس أصحابها وتركها، وتبني لغات أخرى غيرها.

ثانيا: هناك مصطلحات تشكل هذه الوضعية، أو أن الوضعية اللغوية تتشكل في هذه المصطلحات، فتارة تسمى بالازدواجية اللغوية، وتارة أخرى تسمى بالثنائية اللغوية، وتسمى أيضا التعددية اللغوية بحسب حضور عدد اللغات وطبيعتها، ففي الحقيقة هذه المظاهر ما هي إلا وضع من وضعيات لغوية أوجد لها علماء اللغة تسميات بدءا بفرجسون، وهذه الظواهر اللغوية تتشكل كما يلي:

- عندما تحضر اللغات مثنى مثنى، الفرنسية/الأمازيغية، الفرنسية/العربية الفصيحة، الأمازيغية/العربية الفصيحة تسمى بالازدواجية اللغوية.
- عندما تحضر اللغات منفردة مع لهجاتها مثل: العربية مع لهجاتها، الأمازيغية مع لهجاتها تسمى بالثنائية اللغوية.

وهذه الصور اللغوية تحضر في المجتمع الجزائري باستمرار وحسب الظروف الاجتماعية، فالازدواجية اللغوية تحضر في أماكن الدراسة كالابتدائية والمتوسطة والثانوية وفي أماكن العمل وبين العربية الفصيحة والفرنسية، وتحضر أيضا العربية العامية أو الأمازيغية مع الفرنسية في المجتمع وفي مواقف التحدث العادي، أما الثنائية اللغوية فهي تحضر باستمرار وعبر جميع المواقف والظروف خاصة في البيت بين اللهجات الأمازيغية أو اللهجات العربية. أو تحضر في أماكن العمل الرسمية بين العربية الفصيحة مثلا والعامية.

تتجسد اللغات الأمازيغية، العربية، الفرنسية بالتناوب، نتيجة عدم الانسجام بين أفراد المجتمع وعدم معرفتهم المتساوية للغات، لذلك عادة ما تتشكل اللغة مع مستوياتها أو لغة مع لغات أخرى، لتظهر فسيفساء لغوية في مجتمع واحد، لعدم اعتماد معيار لغوي منظم "يكاد يكون المعيار

في الاستعمال اللغوي لا يعتمد إلا على الخلط والتهجين، إن الوضع اللغوي عند شباب المدن الكبرى كالجزائر العاصمة أو وهران وضعية تعج بالانزلاقات اللغوية والثقافية إذ نرى الشباب لا يتحكم في طريقة كلام كبار السلف، كما أنه لا يتحكم في لغة عصرية جديدة ولا يدرك أية لهجة يختار، ألهجة الشرق الجزائري أم لهجة غربها أم لهجة العاصمة."[11]

يتشكل حضور هذه اللغات في ظواهر لغوية تسمى بحسب حضور اللغات،[12] مع الحرص على تسجيل ظروف وأسباب حضور نوع من هذه الأنواع، وكيفية تعايشها، لنحصل في الأخير على وضع من الأوضاع اللغوية. وهذه الظواهر هي:

1. الازدواجية اللغوية:*

لم تطرح الازدواجية اللغوية إشكالية كبيرة في العصور الماضية مثلما أصبحت تتداول تفاصيلها في العصر الحديث، لأن اللغة العربية الفصيحة كانت هي المنتشرة في الساحة الأدبية والعلمية، ولم تكن اللغات الأجنبية منتشرة مثلما هو عليه اليوم ، بل كان أصحابها ينهلون من العلوم العربية بصفة عامة، ولكن مع مرور الأيام وضعف العرب انقلبت الموازين.

تأخرت اللغة العربية بتأخر أهلها، فأصبحوا مولعين بتقليد كل ما هو غربي، فـ " زحفت إلينا في سياق تاريخي من تراجع العربية إبان الحكم العثماني، وانبهار العرب بما أصابه الغرب من التقدم في العلوم والصناعات وكثير من شؤون الحياة"،[13] فنجم عن ذلك تقابل بين زوج من اللغات تمثل اللغة العربية الطرف الأول، وإحدى اللغات الأجنبية الطرف الثاني. لهذا سميت بالازدواجية. فنشأت الازدواجية عن طريق الاستعمار « وتطور الوضع في مخاض التدافع بين العرب والغرب الاستعماري على مستويين: مستوى العربية، إذ تنامى وعي فريق من أهلها على ارتباطها بالمقدس، ودورها المشهود في تاريخ العلم والحضارة، وخصائصها الذاتية وإمكاناتها الكامنة، ومستوى اللغتين الأخريين، إذ جاء بهما المستعمر وفرضهما فأصبحتا لسانين للقوة " المظفرة" فضلا عما سبق لهما في نفوس المبعوثين إلى الغرب من أنهما رمزان للتقدم."[14]

تعني الازدواجية اللغوية bilinguisme - حسب المعاجم اللغوية منها معجم تعليمية اللغات Dictionnaire de Didactique Des Langues " لروبير غاليسون" R. Galisson و"د. كوست" D. Coste : "الأفراد الذين سمحت لهم الظروف التكلم بلغتين مختلفتين"[15] وهي منتشرة بكثرة في الجزائر تظهر في تعايش اللغات فيما بينها وهي: الفرنسية/الأمازيغية والعربية/الأمازيغية، الفرنسية/العربية، نتيجة الزواج المختلط كأن يتزوج الأب الأمازيغي بالأم العربية أو العكس فينشأ الأطفال في الازدواجية اللغوية، وهو أول وسط تظهر فيه حالة تعايش لغتين وهو الوسط الأسري، تنتقل عدوى تعايش اللغتين إلى وسط أوسع منه، وهو المجتمع أين يحتك أفراده وهم يتكلمون لغتين، أو تتعايش لغتان.

أما "جان ديبوا" وآخرون G. Dubois et Autres فيعرفونها: "أنها الحالة اللغوية التي يستخدم فيها المتكلمون لغتين مختلفتين بالتناوب، وحسب البيئة والظروف اللغوية."[16] فهذا الاستخدام المتناوب للغتين تحتمه الظروف اللغوية التي يعيشها الفرد المستخدم للغتين، فالطفل

الذي يعيش في وسط أسري يستخدم لغتين مع التعنت المصاحب لهما، يجد نفسه مرغما في استخدام لغة مثلا مع أمه ولغة أخرى مع أبيه، وما يصاحب هذا الاستعمال من تداخلات لغوية، تمليها ظروف مختلفة منها أن عقل الطفل لا يستطيع استيعاب قواعد اللغتين، ولا معاني المعجم اللغوي التابع للغة من هاتين اللغتين، وبالتالي يكبر معه هذا الخلل اللغوي، فينتشر في المجتمع ليشكل ظواهر لغوية، إضافة إلى أنه هناك ظروفا تاريخية سمحت للازدواجية اللغوية بالظهور، من بين هذه الظروف: القيمة التي اكتسبتها اللغة العربية خاصة بعد نزول القرآن وانتشاره، منذ الفتوحات الإسلامية، إلى غاية يومنا الحالي، أما اللغة الفرنسية فقد فرضها الاستعمار الفرنسي خاصة في المغرب العربي فرضا منذ تواجده في الدول التي استعمرها، وما تزال الدول الأوربية تدعم تواجدها إلى غاية يومنا الحالي، لتظهر اللغة الأمازيغية من زاوية ضيقة تقتصر على بعض المناطق في الجزائر أين تتجسد فيها بصورة جلية كبجاية وتيزي وزو.

جاء في معجم اللسانيات لـ "جورج مونان" G . Mounin أن مفهوم "الازدواجية اللغوية مرتبط أشد الارتباط بكل ما يتصل بالفرد ،كونه قادرا على تكلم لغتين، وتعايش لغتين في مجتمع واحد شرط أن تكون أكثرية المتكلمين مزدوجي اللغة فعلا"[17] إلا أن هذا الشرط قد لا يتحقق في المغرب العربي، والجزائر بالخصوص لأن أكثرية المتكلمين لا يتقنون لغتين أو أكثر، بل ما نلاحظه في الخطابات اليومية حتى الذي يتقن لغتين لا يسير مسارا عاديا أثناء كلامه، بل يتحول بين لغتين لأسباب مختلفة، بعد نطقه لكلمتين قد لا تتعدى ثلاث كلمات، بل يصل في بعض الأحيان إلى المزج بين لغتين في كلمة واحدة، فهذه الظاهرة اللغوية ناتجة عن الازدواجية اللغوية، فتتحول إلى وضعية لغوية يتميز بها الأفراد المتكلمين باللغتين الأمازيغية/العربية، الأمازيغية/الفرنسية، العربية/الفرنسية وهذا المظهر اللغوي بين هذه اللغات قد أنتجته ظروف كثيرة مشتركة بين التاريخية، الاجتماعية، الثقافية، السياسية، النفسية، لعل أبرزها النفسية لأنها ناتجة عن العوامل السابقة، إضافة إلى المعرفة السطحية للغات، كما يطلق بعض المتخصصين" في مجال اللسانيات الاجتماعية على هذه الظاهرة تسمية "الفرانكو أراب" نسبة إلى الإنسان المتعلم باللغة الفرنسية ويحاول إظهارها أثناء الحديث باللغة العربية بوعي أو بدون وعي. وهي ظاهرة تميل إليها النساء أكثر من الرجال أثناء خطابهن، من أجل إبراز ذاتيتهن أمام الرجال الذين يمارسون سلطتهم على النساء في البلدان العربية، فهي في الأخير طلب غير مباشر يبرره التحدي.[18]

إن اللغة الأمازيغية هي مجرد لغة الحديث اليومي، أما اللغة العربية فهي اللغة التي يتعلمها الطفل في المدرسة والمسجد، تبقى اللغة الفرنسية بعيدة المنال لا تعرف منها سوى بعض الكلمات المستعملة يوميا، فأنتج "قلة التواصل مع التراث إلى قطف الركاكة والتراخي، يتشبثون بشعر شكسبير مع أن لغتهم المعاصرة تختلف في بعض أبعادها عن لغته، وأن الفرنسيين يتمسكون بقراءة راسين وموليير وكورني، علما أن تراكيبهم المعاصرة قد تبدلت في كثير من مضامينها، وهذا كله للحفاظ على الأصول ما أمكن."[19]

من بين المظاهر اللغوية العصرية وما قطفناه من العولمة والغزو الثقافي هو التخلي عن الأصول الأمازيغية والعربية على حد سواء، ويا ليتنا استفدنا من التقدم في شتى المجالات التي حققته الدول الغربية"، فأصبحنا غرباء لم نتمسك بما هو أصيل تقليدي ولم نهتم بلغاتنا الأمازيغية

والعربية، ولم نتمكن من مجاراة التقدم العلمي واللغوي الغربي فلم نفقه اللغة الفرنسية والانجليزية، فأنتج هذا الوضع ازدواجية لغوية غير متكافئة.

يرى "آندري مارتيني" أن مزدوج اللغة هو "الشخص الذي يمارس لغتين بنفس الكفاءة"[20] فهذا الشرط الذي وضعه الباحث يتعذر حصوله، لأن اللغة "تحيا وتنمو بالاستعمال، وهو المعيار الذي تفرض فيه اللغة عنوانها العار م، وبالاستعمال تتصل رسالة التشغيل الكامل الذي يصير ما في الوجود ممكنا"،[21] فالمشكلة إذن ليست في امتلاك أو عدم امتلاك الكفاءة في لغة من اللغات بل في المضامين الفكرية والنفسية التي يمتلكها الأفراد المتكلمين للغة من اللغات، فقد نعثر على الأمازيغي يعرف تمام المعرفة اللغة العربية بدليل أنه يقرأ بها القرآن الكريم ويصلي بها، بل يعرف أحكامها، إلا أنه لا يستسيغ الحديث بها في الأماكن العامة، ويعرف تمام المعرفة اللغة الفرنسية إلا أنه يعمد إلى المزج بينها وبين اللغة الأمازيغية، تحت تأثير العادة اللغوية اليومية، وهو ما يحدده بعض اللسانيين في قولهم أن الازدواجية هي معرفة أدنى كفاءة في اللغة الثانية من بينهم "مكنمارا" Macnamara الذي يرى أن "مزدوج اللغة هو الشخص الذي يملك أدنى كفاءة في إحدى المهارات اللغوية الأربع وهي الفهم ، التعبير ، القراءة والكتابة في اللغة الثانية"،[22] فهذا اللساني قد انطلق من الواقع اللغوي الذي تعيشه فعلا اللغات في المجتمع، وبناء على هذا التعريف يستحيل تواجد كفاءة متساوية بين اللغات المتعايشة في بيئة لغوية واحدة، خاصة ما يتعلق منها باللغة الثانية.

لا تطرح الازدواجية اللغوية في إطارها النظري إشكالا. فلا أحد يمنع تعايش أكثر من لغة في مجتمع واحد، كما يتعايش الأفراد فيه، إلا أن هذه اللغات عندما تتواجد في الحقيقة والواقع تنقلب من مجرد ظاهرة نظرية إلى ظاهرة لغوية تطرح إشكالات أثناء الأداء الكلامي، تتمثل في مختلف الأشكال كالتداخل اللغوي والمزج اللغوي والتحول اللغوي، بل تؤدي إلى تشكيل متصورات لغوية كثيرة تشكل قطبا آخر يتصارع مع الواقع اللغوي، وبالتالي تتجلى الوضعية الفعلية للغة من اللغات، مقارنة باللغات الأخرى، نتيجة التقليد الأعمى للغرب أو ما تحدث عنه ابن خلدون في مقولته الشهيرة" المغلوب مولع بتقليد الغالب" حيث يقول: "المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه ـ والله أعلم ـ من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله."[23]

أنتجت الازدواجية اللغوية حالات لغوية ووضعيات مختلفة للغة الأمازيغية، اللغة العربية، اللغة الفرنسية. بل الأخطر من ذلك هو الانفصام اللغوي والثقافي" الذي يعاني منه الفرد المزدوج اللغة نتيجة معرفته أو عدم معرفته للغتين إذ أن "التعبير عن فكرنا باللغة الأخرى يكتسي أحيانا مظهر الجاهل بالثقافة الوطنية، إذا لم يكن خيانة لها ... فأقل ما يمكن قوله في هذا المقام: هو أن ازدواج اللغة يمكن أن يتولد عنه نتائج تتعارض كليا مع الثقافة الوطنية."[24]

نستنتج أن الازدواجية اللغوية هي حالة لغوية وواقع تتعايش فيه لغتان تنتميان إلى فصيلتين أو نظامين مختلفتين، وما ينتج عنهما من اتفاق أو تصادم، ففي الحالة الأولى ينتج عنهما التعايش اللغوي أما الحالة الثانية فينتج عنهما الصراع اللغوي، وما تنتجه هذه الحالات من آثار على اللغات المتعايشة في مجتمع من المجتمعات. تنتج هذه الآثار عن الأفكار الخاطئة التي يحملها المتكلمون بلغة من اللغات نتيجة ضعفهم في الميادين العلمية، حيث أصبح تعلم اللغات الأجنبية والاجتهاد من أجل الحديث بها من المسلمات.

يضاف إلى هذا أن معظم الدول العربية تسعى إلى تعميم تعليم اللغات الأجنبية - خاصة منها اللغة الفرنسية والانجليزية - باعتبارهما إجباريتين في التعليم، وفي الأخير يتخرج الملايين من الطلبة لا يفقهون أشياء كثيرة فيهما، حيث لم توضع إستراتيجية معينة والأهداف المتوخاة من ذلك فـ "لم يتصد العالم العربي لمراجعة موقفه من هذه المسألة، مسألة تعميم تعليم اللغة الثانية، ولم يتوقف، بالطبع، لمراجعة مقدار حاجته إلى تعلم اللغة الثانية، ولم يراجع ما أنفق من أموال وأعمار وجهود ضائعة في تعليم الانجليزية أو الفرنسية لأجيال بأكملها في المدارس تفرض عليها فرضا ثم لا تحصل من الكفاية فيها شيئا يذكر، إن على مستوى سد حاجات "تواصلية" أو "معرفية".[25]

على ضوء المعطيات السابقة نستنتج أن الازدواجية اللغوية في الجزائر تظهر صورها على الشكل التالي ووفق المواقف التالية:

- تظهر اللغة الأمازيغية مع اللغة العربية الفصيحة في أماكن الدراسة وعبر الأطوار التعليمية المختلفة (الابتدائي، المتوسط، الثانوي، الجامعي) وفي مناطق محددة في الجزائر كبجاية وتيزي وزو.
- تظهر اللغة الأمازيغية مع اللغة الفرنسية في الإدارات وأماكن العمل المختلفة، في بجاية وتيزي وزو.
- تظهر اللغة العربية مع اللغة الفرنسية في الإدارات المختلفة وفي أماكن التعليم وعبر جميع المراحل التعليمية في أغلب المدن الجزائرية.

2. الثنائية اللغوية

إن ما يجعلنا نتحدث عن هذا العنصر هو تقدم الدراسات اللغوية بشكل عام والدراسات اللغوية التطبيقية بشكل خاص التي لم تعد تفاضل بين اللغات ولهجاتها، وقد حدثت هذه المساواة منذ بداية ظهور اللسانيات على يد "فرديناند دي سوسير"، والدراسات القائمة في حقل علم اللغة الاجتماعي، إضافة إلى أن فكرة الاهتمام باللهجات قد ساهم في نشرها الاستعمار الأوربي من خلال تشجيع اللهجات العربية، إذ " لم يكتف المستعمر في معركته الشرسة ضد اللغة العربية بالعمل على استبعادها من الحياة العامة وإبطال وظيفتها الاجتماعية وقصرها على أداء الشعائر الدينية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فظهرت محاولاته لتجزئة البنيان اللغوي العربي المندمج طبيعيا باسم المنهجية العلمية المضللة، فأقام الاستعمار الأوربي الدعوات التي تخلط بين اللغة واللهجات العربية القطرية باعتبارها لغات قائمة بذاتها."[26]

وهذا التفتت اللغوي ظاهرة عادية تحدث لجميع اللغات، بفعل عوامل مختلفة (اجتماعية، تاريخية، ثقافية، نفسية)، بل أشارت الكثير من الآيات القرآنية إليها، كما أنه "لم يقتصر على اللغات العامة بين الأمم إنما قد يكون هذا التفتت والاختلاف في اللغة الواحدة عن طريق نشأة اللهجات فيها، يتكلم بها جماعات في ضمن اللغة الواحدة، وهذه اللهجات تتولد من اللغة الأم كما نراه في اللغة اللاتينية وما نراه في اللغة العربية أيضا."[27] كما تتحول هذه الدراسات إلى أداة لإثارة الفوضى اللغوية عندما يراد منها إضعاف اللغة الجامعة لهذه اللهجات، وإحلال مكانها لهجة من اللهجات أو لغة أجنبية أخرى.

يعود سبب اهتمامنا بلهجات اللغة العربية إلى هدف الإصلاح اللغوي، انطلاقا من وصفها ووصف علاقتها بالعربية الفصيحة، من أجل الوصول إلى عملية التقريب بينهما كما يقول محمود فهمي حجازي: "الاختلاف اللغوي شر والوحدة اللغوية خير عظيم، وإني في حالة العربي خاصة لأفهم كل الفهم وأرى من الحق أن يشعر العرب متباعدة أقطارهم بحاجتهم إلى لغة واحدة هي رمز وحدتهم الروحية، وأن هذه اللغة الموحدة لا يمكن أن تكون سوى الفصحى."[28]

قد يكون هذا التقريب بين الأشتات اللغوية وتحديد أدوارها في عملية التواصل اللغوي كفيلا بوضع خطة شاملة للنهضة اللغوية، ومقاومة مختلف عمليات الاستلاب اللغوي والثقافي بصفة عامة. وهذا لا يعني محاولة إحلال العاميات محل اللغة العربية الفصيحة، لأنه يؤدي إلى إضعافها والقضاء عليها.

أول من استعمل مصطلح "الثنائية اللغوية" كمفهوم لساني هو اللغوي "شارلز فرغسون" سنة 1959 في مقال له تحت عنوان Diglossia ، أثناء دراساته المعمقة للمستويات التي تنتظم فيها اللغات (العربية ، اليونانية ،الألمانية ، الهايتية) إذ أن في هذه المجتمعات هناك نوعان لغويان أحدهما يستخدم في المواقف الرسمية، والآخر يستخدم في الحديث اليومي العادي ، ففي المواقف الرسمية تستخدم العربية (الفصحى) اليونانية (اليونانية وتسمى كتاريفوشا) ، الألمانية (الألمانية المرموقة) ،الهايتية (الفرنسية) ، ورمز إليها فرغسون بالحرف "H" بمعنى High" أما في الحديث اليومي فتستخدم العربية (العامية أو الدارجة) ، اليونانية (دهيوتيكي)، الألمانية (اللهجة السويسرية) ، الهايتية (الهجينة).[29] وقد عرّف فرغسون الثنائية بأنها موقف لغوي ثابت نسبيا توجد فيه بالإضافة إلى اللهجات الأساسية للغة بعينها، والتي قد تتضمن لهجة متواضع عليها ، أو لهجات إقليمية متواضع عليها، نوعية أخرى تخضع لمعايير وهي غالبا ما تكون أكثر تعقيدا من جهة عليا، وهي أيضا لغة الكتابة الأساسية في الأدب ولغة التراث، وربما لغة لجماعة كلامية في الماضي، وهذه النوعية يدرسها ويتعلمها الناس من خلال النظام التعليمي الرسمي للبلاد، وتستخدم في جميع المواقف والأغراض الرسمية المنطوق منها والمكتوب، ولكنها ليست مستخدمة في أي قطاع من قطاعات المجتمع لتجاذب أطراف الحديث.[30]

ففي الجزائر مثلا توجد اللغة العربية الفصيحة الرسمية المتعامل بها في الإدارة والمحاكم والوزارات ومن خلال الوثائق الرسمية للدولة الجزائرية، كما تعتبر لغة التدريس من السنة الأولى ابتدائي إلى غاية السنة الثالثة ثانوي، وتوجد التنوعات اللغوية أو اللهجية، كلهجة الجزائر العاصمة، لهجة شرق الجزائر، لهجة غرب الجزائر، لهجة وسط الجزائر، ولا نغالي إن

قلنا في كل ولاية لديها تنوعات لغوية خاصة بها، وهذا ما نقصد بالثنائية اللغوية الموجودة بين اللغة العربية الفصيحة ولهجاتها في الجزائر. ويمكن أن نصنف أماكن تواجد اللغة العربية في الجزائر ولهجاتها بناء على المصنف الذي وضعه فرغسون كما يلي:

ـ تستعمل اللغة العربية الفصيحة في الخطابات الدينية باعتبارها "عربية فصحى في المصحف المرتل، وهي عربية ائتلافية فقد أنزل القرآن على سبعة أحرف"[31] الموجهة من على منبر المسجد يوم الجمعة خاصة في الخطبتين، بينما غالبا ما تستعمل العربية العامية في الدرس المقدم قبل الخطبتين من أجل أن يفهمه عامة الناس. كما تتداول العربية الفصيحة في الدواوين والإدارات العامة، وبالتالي تحد هذه الأخيرة من "مد اللهجات والعاميات وتروج الفصحى بشتى الوسائل، وبخاصة بأدب الكتاب والمنشئين الذين يسهمون في نشر الفصحى، ويجعلون المراجعين يشعرون بأنهم يؤلفون وحدة ألسنية هي بمثابة النشاط التي تؤلف بين جميع قلوب الذين يتعاملون بالفصحى، وبأن عليهم رفع شعار الفصحى الكفيلة بأن تبين انتماءهم إلى لغة رسمية، هي بمستوى العصر الذي يعيشونه وبقدر جلال الوطن أو القومية التي ينضوون تحت لوائها."[32]

ـ تقرأ القصائد والروايات والدواوين الشعرية وتملى الدروس على التلاميذ بالعربية الفصيحة فهي "عربية فصيحة بالفعل إذا استوفى القارئ بما استدخل من نظامها شروط الصواب، كما في إنشاد الشعر الفصيح والغناء به، وكما في الدراما التاريخية والدراما التلفزيونية، المترجمة "المدبلجة" والتقارير الوثائقية والنشرات الإخبارية وكثير من أفلام الكرتون... وغيرها"،[33] بينما يتم شرحها بالعربية العامية، « فكثير من مدرسي اللغة العربية يستخدمون لهجاتهم العامية المحلية في التدريس بدلا من الفصحى، مما يوسع الفجوة بين الفصحى والعامية، أو يبعد الفصحى عن دائرة الاهتمام ويقلل من حصيلة الناشئة من مفرداتها وصيغها، كما يقلل من إحساسهم بفاعليتها وفاعلية ما يكتسب منها من عناصر، أو يخلق صعوبة في استحضارهم لهذه العناصر وفي استخدامها في مجالات اليوم".[34] نتج عن هذا الخلط أن تعلم التلاميذ حصيلة ضئيلة من مفردات اللغة العربية الفصيحة، وتكونت لديهم ثروة محتشمة من الزاد اللغوي في اللغة العربية الفصيحة، فأصبح كلامهم خليطا من الفصيحة والعامية، أو يسميها بعض الدارسين بالعربية الوسطى وهي "عربية المتعلمين المحكية، وهي مزيج من العامية المكتسبة والفصحى المتعلمة، تقترب من الفصيحة في معجمها وهيئات أبنيتها وطرائق نظمها، ولكنها تقع دون الفصيحة لأنها غير معربة إلا في بعض المأثور والرواسم، وهي عربية التخاطب بين المتعلمين الناطقين بلهجات عربية مختلفة."[35]

ـ تؤلف البحوث الجامعية الأكاديمية باللغة العربية الفصيحة كما تقدم المداخلات في الملتقيات بها، باستثناء بعض موضوعات المداخلة المهتمة بالأدب الشعبي، فتصبح "عربية فصيحة بالقوة وهي عربية البحوث والمؤلفات والدوريات والصحف، إذ هي مكتوبة غير مشكولة في المعتاد الجاري، وإذن تكون مفتوحة لمستويات متفاوتة من الأداء، فقد تكون فصيحة بالفعل على الشروط المتقدم ولكنها في السائد عربية ملحونة مشوبة بأخطاء الضبط والإعراب، وهي عربية القارئ العربي على العموم"،[36] إلا أن الملاحظ في أغلب البحوث الجامعية شيوع الأخطاء اللغوية والتراكيب

الركيكة التي لا تعتمد المعايير النحوية الصحيحة، ولا تعير اهتماما للكلمات ومدلولاتها الصحيحة الدقيقة وهو ما يؤدي إلى إنزال اللغة العربية الفصيحة من منزلتها وتقريبها إلى العامية.

- تتلى محاضر الاجتماعات وعقد القران وإصدار الأحكام في المحاكم باللغة العربية الفصيحة، بينما يدور النقاش في الاجتماعات كما يدور النقاش بين القاضي والمتهم بالعربية العامية. وهي ليست مشتركة عبر كل أنحاء الوطن، وإنما تنقسم إلى عاميات جهوية (شرقية، وسطى، غربية، جنوبية)، وحتى من جهة واحدة تنقسم إلى أقسام أخرى أصغر منها، وهذا ما ينتج التعقيد أثناء الحديث بين شخصين من جهتين مختلفيتن.

- تلقى الخطابات الرسمية من الورقة مباشرة باللغة العربية الفصيحة، بينما يتم شرح نقطة من النقاط أو الإجابة عن أسئلة الصحفيين عند بعض السياسيين بالعربية العامية. وهناك في بعض الأحيان من يلقيها باللغات الأجنبية، إذ المتعارف عليه أن "اللسان المكتوب وهو لهجة أختيرت لتكون وسيلة التخاطب الرسمية فقد تكون لهجة الطبقة الحاكمة في البلاد وقد تكون لغة أجنبية فرضتها وديا أو جبريا ظروف سياسية أو ثقافية أو دينية محددة."[37] وهذا ما حدث في الجزائر حيث أصبحت اللغة الفرنسية وهي لغة أجنبية أولى تزاحم اللغة العربية الفصيحة في الجلسات الرسمية، وعلى لسان من يحمي اللغة العربية بقوانين دستورية، حيث تنص القوانين المتعلقة بتحديد الهوية الوطنية أن اللغة العربية لغة رسمية وطنية، وهو عكس ما يظهر التعبير اللغوي ويصاحب الحديث باللغة الفرنسية العامية العربية.

- تنقل الأحاجي والروايات الشعبية والألغاز والبوقالات وكل أشكال الأدب الشعبي مزيجا بين العربية العامية والفصيحة، بينما يتواتر الأدب المكتوب بالعربية الفصيحة. وكان من المفروض أن ترتقي أشكال الأدب الشعبي إلى استعمال اللغة الفصيحة بحيث "تبدي الأوساط الشعبية رغبة ملحة في الاستزادة من الفصحى، وهي تنهل الثقافة الشعبية من الغراماطيق المعياري، لاسيما أن سواد المنتفعين بالفصحى، لا يحبون أن يقعوا في الخطأ أو ما نسميه باللحن، وأن يخرجوا على السوي والمألوف، وأن يقترفوا المستهجن والقبيح وأن يضبطوا بالجرم المشهود، وأن يؤخذوا وهم متلبسون فيه ولذا يحتاجون إلى أصول وأحكام وقوانين يرجعون إليها، ونواميس تجنبهم ارتكاب النواهي والمحرمات، وبما أن السلوك اللغوي هو سلوك اجتماعي ترسمه كتب اللغة، يتقيد الناس بسلوك المجتمع الذي يعيشون فيه، ويحترمون قوانين الغراماطيق المعيار، ويطبقونه في لغتهم الفصحى."[38] أو قد سلك المتخصصون في الأدب الشعبي لغة تقترب كثيرا من العامية، دعواهم فيها أن هذه اللغة تلائم محتوى هذا اللون من الأدب، فتشكلت بذلك « عربية فصيحة محكية يحاولها ويلتزمها متخصصون ومثقفون ولكنهم قليل حتى ليكاد الناس يميزونهم بهذه الخصوصية."[39]

- تقترب اللغة العربية المتكلم بها في نشرات التلفزيون الجزائري وفي باقي نشرات الفضائيات العربية من الفصيحة لولا بعض التعابير الصحفية الشائعة، والكلمات الخاطئة المشهورة، ونقص الكفاءة عند بعض الصحفيين المقدمين، وبالتالي فهي "عربية شبه فصيحة تجري بها ألسنة مراسلي بعض الفضائيات في سياق نشرات الأخبار، إذا اجتهدوا في تطويرها لتنسجم مع سياق النشرات، ومقتضيات الخطاب الموجه إلى قطاع المشاهدين في الفضاء الممتد"[40] فهي تساهم

كثيرا في نشر لغة عربية فصيحة خاصة تلك التي تستقطب الكثير من المشاهدين كالعربية والجزيرة.

- تكتسب العربية العامية مبكرا بل هي اللغة الأم في معظم ولايات الجزائر "إنها عند العربي الأمي لغته الأم يكتسبها ويدخل نظامها، ويستعملها في محيطه الاجتماعي المحلي دون أن يلقي في ذلك مشكلا، ودون أن تلقي عليه إشكالا."[41] وتؤلف بها الأغاني الشعبية والراي، فهي ممتدة في فضاء الشباب لانجذابهم نحو هذه الألوان الغنائية لأنها تفهم بالسليقة، إضافة إلى تطعيم هذه الأغاني بكلمات أجنبية وبالتالي ترسخت في أذهان الشباب فأصبحوا يتداولون "عربية مختزلة مكتوبة بالحرف اللاتيني يتداولها الشباب في رسائل الهواتف المحمولة والبريد الإلكتروني"[42] إذ اكتشفنا من خلال المعاملات اليومية والاتصالات عبر الرسائل القصيرة بين الناس أن المحتوى عربي، أما اللغة التي ينقل بها هذا المحتوى فهو بحروف فرنسية، كذلك تشمل هذه العادات اللغوية الولايات الناطق أهلها باللغة الأمازيغية، بينما تكتسب العربية الفصيحة عن طريق التعليم بدءا بالسنة الأولى ابتدائي.

- تكتب الإعلانات المعلقة في اللوحات الإشهارية بلغة مزيج بين العامية والعربية الفصيحة والفرنسية، باعتبار أن الخطاب الموجه إليها هذه الرسالة اللغوية غير محددة في طبقة معينة كأن تكون الطبقة المثقفة فقط بل توجه لشريحة عامة من المجتمع، فتشكلت "عربية مكتوبة مجتزأة في الإعلانات المبوبة لغاية الإبلاغ تسقط الروابط جملة، إذ تعول في خطابها على قرائن السياق، وتستثمرها لغايات الاقتصاد في حيز الإعلان، ومؤنة النفقة."[43]

- اللغة العربية الفصيحة مقننة تخضع لقواعد صورية، بينما تميل العامية إلى التسهيل أثناء الكلام، ولا تحكمها قواعد معينة، إلا أن هذا الحكم يبدو جائرا نوعا ما، لأن "الموقف يبدو مفتعلا في إيجاد خصومة لا مبرر لها بين العامية والفصحى مع تجاهل ما بينهما من التلاقي والتكامل المعرفي، بدليل ما يوجد لدى طبقة العامة من البسطاء الذين مازالوا يرددون قصائد مغناة لأقطاب الغناء العربي المشهود لهم بالبراعة والأصالة، فكان غناؤهم بالفصيح والعامية يسير في خطين متوازيين يتقبلها الجمهور بدهشة وانبهار لا تقل عن شغف الجمهور ذاته بلغته الدارجة وآدابه الشعبية المعبرة عن همومه ومشكلاته وطموحاته وآلامه."[44]

- تتقارب العربية العامية من اللغة العربية الفصيحة بل هي جزء منها لأنهما تشتركان في جميع المستويات اللغوية، مع بعض التحوير والتغيير الذي طرأ على العربية العامية بحثا عن التسهيل. فهي عند "اللساني العربي، على المستوى اللغوي الخالص، بنت الفصحى إذ أنها تمت إليها بنسب عريق، وإن هجنتها أو تناءت بها عوامل التطور والاختلاط، وهي عند اللساني الاجتماعي نظام لغوي ذو محمول ثقافي عزيز، وهي عند بعض النقاد تنطوي على إمكانيات إبداعية كامنة، بل تترجم عن فنون شتى من الإبداع... وهي لدى قطاع عريض من الشباب لسانهم التلقائي فلا يعبأون أن يكتبوها."[45]

- تتعدد العاميات في الوطن العربي عامة والجزائر خاصة، وتظهر بأشكال مختلفة جدا، فهي تتنوع بتنوع وتباعد المواقع الجغرافية، لهذا حق علينا تسميتها بالأداءات والتنوعات المختلفة للغة العربية الفصيحة، فهناك العربية الجزائرية والتي تنقسم بدورها إلى عربيات، وهناك العربية التونسية

وهي كذلك تنقسم إلى عربيات، والأحق أن نسميها تنوعات وليست لغات، وهذه التسميات زرعها الاستعمار من قبل وتداولتها ألسنة الشباب حاليا « فقد غلا " الآخر" في عد كل لهجة " لغة" قائمة برأسها، وأصبحت اللهجات العربية لغات عربية شتى كالذي نجده من عناوينه: العربية العراقية (Iraq Arabic) والعربية المصرية (Egyptain Arabic) وهو إيذان بأن العربية، عندهم في حال قد تؤول بها إلى مثل مصير اللاتينية."[46]

3- فحص مقاربات " فرغسون"[47] ، " فيشمان"[48] و "كودريك"[49] من خلال الواقع اللغوي الجزائري

- تتجلى المقاربة اللسانية التي جاء بها فرغسون بوضوح في المجتمع الجزائري - وهو ما بيناه في ثنايا هذا المقال- حيث تتعايش اللغة العربية الفصيحة مع العامية العربية تشكلان النمط العالي مع النمط الأدنى، بل ينشطر هذا النمط الأخير إلى مجموعة من المستويات يصعب على الباحث اكتشافها بمفرده بل يجب توزيع المهام على مجموعة من المختبرات اللغوية، عبر جميع مراكز البحث المتواجدة في الجزائر، لاكتشاف هذا التنوع وانعكاساته على اللغة العربية الفصيحة والعامية.

- أما عن المقاربات اللغوية التي وضعها اللساني " فيشمان" (Joshua Fishman) فيصعب تطبيقها على المجتمع الجزائري نظرا لتوسع المفهوم الأول عند فرغسون ليشمل عند فيشمان ما يلي:

- ازدواجية وثنائية: حيث أن الازدواجية المطلقة لا تحصل عند عامة الناس بل عند فئة قليلة جدا تقتصر على الإطارات والأساتذة مثلا، فلا يظهر هذا النمط بشكل كامل كما حدده فيشمان، أما الثنائية فهي تتجلى بوضوح وتقترب من المفهوم اللساني عند فرغسون.
- ازدواجية دون ثنائية: لا يمكن أن تظهر هذه الثنائية، حيث أن أغلب أفراد المجتمع الجزائري يتقنون اللغة أو لهجتين تنتميان إلى لغة واحدة، ولا يكون العكس، وهو ما يثبته الاحتمال الثالث.
- ثنائية دون ازدواجية: وهو الوضع اللغوي المنتشر في الجزائر، ولا تتأتى الازدواجية اللغوية إلا لفئة قليلة جدا .
- لا ثنائية ولا ازدواجية: نادر الحدوث في أغلب المجتمعات الإنسانية، إذ يتعذر وجود لغة واحدة أو لهجة واحدة في مجتمع ما .

- تعالج مقاربة كودريك الوضع اللغوي وفق ثنائية (لغة/هيمنة) وهي التي تحصل فعلا في المجتمع الجزائري حيث تتجلى الهيمنة في مختلف المواقف وبشتى الطرق والوسائل، ففي المجتمع الجزائري مثلا تتجلى هيمنة اللغات الأجنبية (الفرنسية والانجليزية) بشكل واضح في مختلف الميادين، نظرا لطبيعة هذه اللغات وتقدم أهلها ثم تظهر اللغة العربية وتتجلى هيمنتها في المواقف الرسمية، من خلال المادة 03 من الدستور الجزائري الذي يقر أن " اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية" (المادة 03 مكرر، المادة 01 من القانون رقم 02-03 المؤرخ في 10 أفريل 2002 وهي المادة التي أضافت اللغة الأمازيغية كلغة وطنية "تمازيغت هي كذلك لغة وطنية تعمل الدولة لترقيتها وتطويرها بكل تنوعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب الوطني." وبذلك تنحصر وظيفة اللغة

الأمازيغية في مواقف وأماكن محدودة جدا، تتمثل في التواصل الشفهي اليومي، بالرغم من إدخالها كلغة تعليم في المناطق الناطقة باللغة الأمازيغية.

4- نتائج الازدواجية والثنائية اللغوية من خلال الواقع اللغوي الجزائري

إن تعايش أكثر من لغة ولهجة مثى مثى أو تواجدها مجتمعة تؤدي إلى نتائج متعددة، تمس الجوانب المختلفة للأشخاص المتكلمين بلغة من اللغات، منها ما يتعلق بالواقع أي: التأدية والممارسة، ومنها مايمس الجانب الخفي، وهو أعظم - في نظرنا - لأنه يؤثر في الواقع سلبا أو إيجابا، فمن الجوانب التي تتأثر بالازدواجية والثنائية اللغوية الجانب الهوياتي، أو ما يعرف بـ "الشعور بالانتماء"، حيث يبين فؤاد لعروسي هذا التأثير بقوله: " إذا كانت الهوية الوطنية تعرف بالنظر إلى القانون فهي لا تستلزم لغة وطنية واحدة، ولها لغات عديدة ومختلفة، وهو الوضع بالنسبة لسويسرا، وأيضا بلجيكا، والولايات المتحدة... إن إشكالية وجود دول متحدة ذات ألسنة متعددة، هي إشكالية موجودة وحقيقية ... إذ أن في كل الأحوال تعدد الألسنة ظاهرة واقعية، وهذا ما يبين أن اللغات في حد ذاتها ترجع إلى هويات مختلفة، وقد تكون بدرجات متفاوتة الأهمية، مقارنة بالهوية الوطنية"،[50] حيث يؤدي اختلاف اللغات إلى اختلاف الهويات، والذي ينتج عنه اختلاف الشعور بالانتماء، وهذه العوامل تؤدي إلى المضاربة اللغوية لدى الشخص الثنائي أو المزدوج اللغات، كما تؤدي أيضا إلى إثارة الحساسية بين اللغات، أو ما يعرف بمسألة المواجهة بين لغتين، أي المواجهة بين "اللغة العربية" و"اللغة الفرنسية" أو المواجهة بين " اللغة العربية واللغة الفرنسية" على حد تعبير الأستاذة خولة طالب الإبراهيمي.[51]

بالرغم من الإشكالية التي تطرحها الظاهرتان، فإن لهما جوانب إيجابية كثيرة، أهمها على سبيل المثال لا الحصر: أن الفرد في بعض الأحيان قد لا يفهم لغته إلا إذا أتيح له أن يقارنها باللغة الأجنبية، وذلك من أجل أن يتمكن من فهم معاني وإيحاءات الكلمة ودلالتها، كما تمكنه طريقة المقارنة من فهم النظم وطرقه الخاصة بتلك اللغة وبالتالي لغة منشأه الاجتماعي، والتي تلقاها عن طريق الاكتساب العفوي أثناء نشأته، إذ لم يكن بمقدوره أن يصل إلى هذا الإدراك لو لم يتعلم اللغة الثانية أو اللغة الأجنبية، وإن تعلم لغة أخرى إلى جانب اللغة الأم عندما تنظر إليها في المطلق بالنسبة إلى الفكر البشري تعتبر إمكانية لإدراك كنه اللغة في أسمى ظواهرها من حيث كونها ظاهرة بشرية تتضوي تحتها كل اللغات المعروفة، وإن تعلم اللغة الثانية أو الأجنبية يثري معجم الفرد في اللغات كما أنه يحسن مهارة التعبير عنده، فمن يتحدث لغة واحدة كمن يرى بعين واحدة، لا يمكن له أن يدرك أو يلاحظ كل ما يدور حوله.

5 - خلاصة وتركيب

أولا: تتشكل الثنائية اللغوية في الجزائر بين

- اللغة العربية الفصيحة ولهجاتها: لم تكن تشكل اللهجات خطرا على العربية الفصيحة، نظرا للمواقف التي كانت تحتلها، فهي وسيلة للتعبير في الأماكن العمومية والأسواق، نظرا لانحرافها عن القالب النموذج وميلها إلى التبسيط والسرعة في التبليغ، كما أنها تتميز بالشفاهية، فهي

تتماشى مع مقتضيات الحياة اليومية العادية، فهي ترتبط بالواقع، أما العربية الفصيحة فهي اللغة المستعملة داخل أماكن محددة كالمدرسة والإدارة، إنها تستعمل عموما داخل المباني التابعة للدولة، كما أنها تتميز بالكتابة. إن علاقة اللغة العربية الفصيحة بلهجاتها علاقة الواقع بالمثال. إلا أن مع مرور الوقت أصبحت العاميات تزاحم العربية الفصيحة حتى في الأماكن المخصصة لها، فلم نعد نسمع العربية الفصيحة في المدارس، ولم يعد يتحدث بها لا المعلم ولا المتعلم، ولم يعد يتحدث بها أغلب السياسيين في خطاباتهم.

- اللغة الأمازيغية ولهجاتها: تغلب اللهجات على اللغة الأمازيغية المشتركة، لأن هذه الأخيرة مازالت في مراحلها الأولى لم تعرف الاستقرار والضبط النهائيين، فهي مازالت داخل مخابر المهتمين بها، أما اللهجات فهي تنتشر في بعض الجهات من الدولة الجزائرية، كبجاية وتيزي وزو، وفي بعض الولايات المجاورة لها.

ثانيا: تتشكل الازدواجية اللغوية في الجزائر بين

- اللغة العربية و الأمازيغية
- اللغة العربية والفرنسية
- اللغة الأمازيغية والفرنسية

ثالثا: أفرزت الازدواجية والثنائية اللغوية مجموعة من الظواهر منها

- التداخل اللغوي بين نمطين مختلفين وهو ما يسمى بالازدواجية اللغوية تتمثلان في:
  العربية والأمازيغية: في المناطق الناطقة باللغة الأمازيغية
  الأمازيغية والفرنسية: في المناطق الناطقة باللغة الأمازيغية
  العربية والفرنسية: في المناطق المعربة أو باقي ولايات في الجزائر
- التداخل بين مستويات مختلفة داخل نمط لغوي واحد وهو ما يسمى بالثنائية اللغوية، يظهر في:
  - العربية الفصيحة والعامية
  - العربية العامية وتداخل تأدياتها
  - الأمازيغية وتأدياتها المختلفة

حيث يظهر هذا التداخل اللغوي في الممارسات اللغوية، أو كما وسمناه بالواقع اللغوي الذي يتميز بالتعددية اللغوية فـ "من يستجلي الواقع اللغوي في الجزائر يسمع الجزائريين يتواصلون بأربع لغات وبدرجات متفاوتة لكل واحدة، وتظهر الدراسات اللسانية أن لهذه اللغات بنيات صوتية وصرفية وتركيبية ومعجمية، تجعل منها أنظمة تواصلية مختلفة بعضها عن بعض... فمظهر التعددية تتجلى في مختلف الميادين، وعلى مستوى مناطق الوطن، حيث لكل جهة تراثها، وكل جهة تقوم اللغات واللهجات الجهوية والمحلية كأدوات للتواصل مع الساكنة المحلية، وهذه سمة ترسخت منذ دخول الفاتحين شمال إفريقيا، فكانت التعددية اللسانية ممارسة وسلوكا، تجيء وتسير بصورة عفوية ودون عقبات."[52]

الهوامش والإحالات

[1] زهير غازي زاهد، العربية والأمن اللغوي، مؤسسة الوراق، الأردن، 2000، ص 07.

[2] إبراهيم سعدي، إشكالية التواصل اللغوي بالجزائر، اللغة العربية، ع2، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ص 153.

[3] صالح بلعيد، قرار استعمال اللغة العربية (رأي في التجربة الجزائرية)، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ع 46، ديسمبر 1998، ص 238

[4] المرجع نفسه، ص 138

[5] إنها تلتصق به التصاقا فإذا " كان الإنسان قوميا عاجزا على أن ينتمي إلى أكثر من مجتمع واحد، كما هو عاجز على أن ينتمي إلى أكثر من أم واحدة، فإنه عاجز عن الانتماء إلى أكثر من لغة واحدة هي لغة المجتمع أو الشعب الذي ينتمي إليه، وما يقال في الفرد يقال في المجتمع، فلكل مجتمع (أو شعب) لغة قومية واحدة هي أقوى جامع ومعبر عن عواطفه وأفكاره وواقعه الثقافي" (أحمد بن نعمان، هل نحن أمة، دار الأمة، ط1، الجزائر، 1997، ص 35)

[6] علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار النهضة العربية، مصر، 1971، ص 02

[7] –كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1956، ص 151

[8] نهاد الموسى، الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة، دار الشروق، ط1، الأردن، 2003، ص 135

[9] نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية الحديثة، المرجع السابق، ص 171

[10] أحمد بن نعمان، هل نحن أمة، المرجع السابق، ص 40

[11] يمينة سيتواح، مظاهر التداخل اللغوي في لغة أخبار التلفزة الجزائرية " تأثير اللغة الفرنسية في اللغة العربية". أطروحة دكتوراه دولة في اللسانيات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2006– 2007، ص 109.

[12] يتميز المجتمع الجزائري بأنه مجتمع " متعدد الألسن، وحالة هذه الألسن عنده متفاوتة الدرجات والاستعمالات، وهناك على العموم نوعان من مزدوجي اللغة عندنا: قسم يدرك اللغات جيدا ويحسن استعمالها وتوظيفها في جميع أمور الحياة الفردية والاجتماعية، تحصل عليها من التعليم عموما أو من القرابة التاريخية والجغرافية التي تربط بفرنسا" (المرجع نفسه، ص 139).

* يقصد بازدواجية اللغة Le bilinguisme وجود لغتين مختلفتين، عند فرد ما أو جماعة، في آن واحد ومن دون الدخول في بحث المعايير التي بوساطتها نستطيع أن نؤكد وجود الازدواجية بين لغتين معينتين، فإن بعض الباحثين يرفضون استعمال مصطلح " الازدواجية" الذي يستعمله كثير من اللغويين، للدلالة على شكلي اللغة العربية الفصحى والعامية ذلك أن العامية والفصحى فصيلتان من لغة واحدة والفرق بينهما بالتالي فرق فرعي لا جذري وعليه، فالازدواجية الحق لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين، كما بين الفرنسية والعربية، أو الألمانية والتركية، أما أن يكون للعربي لغتين إحداهما عامية، والأخرى فصيحة، فذلك أمر لا ينطبق مفهوم الازدواجية عليه، إنه بالأحرى ضرب من " الثنائية اللغوية" Diglossie (موسوعة علوم اللغة العربية، إميل بديع يعقوب ص 378)

[13] نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث (قيم الثبوت وقوى التحول)، دار الشروق للتوزيع والنشر، ط1 ، الأردن، 2007، ص 151

[14] المرجع نفسه، ص 151

[15] Dictionnaire De Didactique Des Langue,Hachette, Paris, 1976, P12 , R. Coste D. Galisson

[16] Dubois Gean et Autres ,Dictionnaire De Linguistique, Ed Larousse, Paris1997 ,P66

[17] Mounin G, Dictionnaire De Linguistique, Ed Ouadig / P U F , Paris, 2004, P 52

* وهي التسمية التي أطلقها محمود الذاودي على الأداء الذي يمزج بين الفرنسية والعربية، لمزيد من التوضيحات ينظر: (ظاهرة الدعاء والفرانكوأراب في ميزان علم النفس الاجتماعي، محمود الذاودي، مجلة أوان، العدد العاشر، 2005، ص ص 40–47).

[18] ينظر: محمود الذاودي، المرجع نفسه، ص ص: 40– 47

[19] صالح بلعيد، منافحات في اللغة العربية، المرجع السابق، ص 13

* لقد كانت دواعي تعلم اللغات الأجنبية هي التعرف على علومهم والاستفادة منها إذ " كانت مدخلا إلى معرفة الآخر والوقوف على أسباب قوته، بل تنبه أهل العربية وهم يؤملون أن يستأنفوا مشروعهم للنهضة إلى دور الترجمة وكانت ترجمة موجهة أيضا ... ولكن الظروف التي تعاقبت على الأمة قد انحرفت بهذه المسألة عن وجهتها الهادفة في أن يكون تعلم اللغة الثانية لأغراض خاصة" (نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث، المرجع السابق، ص 152).

[20] Matias et L , Le Bilinguisme, Aspects Linguistique , Psychologique , Sociologique et Philosophique, 1978, P 159

[21] صالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2002، الجزائر. ص6

[22] Hamers, J. F et Blanc. L , Bilingualité Et Bilinguisme , Eds Mardago , Bruxelle ,1983 , P 51-53

[23] ابن خلدون، المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت،1961، ص ص 258–259

* الانفصام هو الصراع والتشكيك في المواقف بين جبهتين متناقضتين وفي الرؤى والأفكار لكل منهما رأي خاص بها، وقد حدث الانفصام اللغوي والثقافي في الجزائر بعد الاستقلال مباشرة، حيث نقل تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003 عن التقرير القطري المعد لتقرير التنمية الإنسانية العربية الثاني ما يلي: " عمقت الدولة الجزائرية جهودها منذ بداية الثمانينات في القرن الماضي لجعل اللغة العربية هي الغالبة في حياة المجتمع بدلا من اللغة الفرنسية، وقد أثرت سياسة التعريب التي فرضت لأكثر من عقدين على التعليم والاتصالات بوجه خاص، وكذلك على القضاء وكثير من مؤسسات الإدارة العامة، ونجم عن التحول من الفرنسية إلى العربية، الذي تعرض له جيل كامل من المهنيين الذين كانوا غالبا يتحدثون الفرنسية، في نظر البعض، خسارة في المعرفة والقدرة وكان التعريب أقل فعالية في ميادين الاقتصاد والتقانة والإدارة حيث مازالت الفرنسية هي المهيمنة، كما أن الكتب والصحف وبرامج الإذاعة المسموعة والمرئية تطبع وتذاع إما بالعربية أو بالفرنسية (والبعض باللغات البربرية) مع القليل من الترجمات، وقد أدى هذا التقسيم اللغوي إلى اختلال الانسجام والتجانس في تدفق الاتصالات بين المجالات المختلفة للمجتمع" (نقلا عن: نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث (قيم الثبوت وقوى التحول)، المرجع السابق، ص 156 .

[24] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، ط2، دمشق، سوريا، 2002، ص 142

[25] نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث (قيم الثبوت وقوى التحول)، المرجع السابق، ص 157 .

[26] نازلي معوض أحمد، التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، سلسلة الثقافة القومية، (06)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1986 ص 31-32

[27] زهير غازي زاهد، اللغة العربية والأمن اللغوي، المرجع السابق، ص 19

[28] محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي، مكتبة غريب، 1993، ص 97

[29] السيد عبد الفتاح عفيفي ، علم الاجتماع اللغوي، دار الفكر العربي، د ط، مصر، 1995 ، ص 120 .

[30] هدسون ، علم اللغة الاجتماعي ، تر: محمود عياد، عالم الكتب، ط2، مصر، 1990 ، ص 90

[31] نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث(قيم الثبوت وقوى التحول)، المرجع السابق، ص 20

[32] ريمون طحان و دنيز بيطار طحان، اللغة العربية وتحديات العصر، دار الكتاب اللبناني، الألسنية (06 –07) ط2، لبنان، 1994، ص 45

[33] نهاد الموسى، المرجع السابق، ص 20

[34] أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية: أهميتها، مصادرها، وسائل تنميتها، عالم المعرفة، عدد 212، الكويت، ص 12

[35] نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث (قيم الثبوت وقوى التحول)، المرجع السابق، ص 21

[36] المرجع نفسه، ص 20– 21

[37] نازلي معوض أحمد، التعريب والقومية، المرجع السابق، ص 35

[38] ريمون طحان، اللغة العربية وتحديات العصر، المرجع السابق، ص 45

[39] نهاد الموسى، اللغة العربية الفصيحة في العصر الحديث (قيم الثبوت وقوى التحول)، المرجع السابق، ص 21

[40] المرجع نفسه، ص 21

[41] المرجع نفسه، ص 143

[42] المرجع نفسه، ص 21

[43] المرجع نفسه، ص 21

[44] عبد الله التطاوي، اللغة والمتغير الثقافي (الواقع والمستقبل) ، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة (مصر)، مارس 2005، ص 17

[45] نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث، المرجع السابق، ص 143

[46] المرجع نفسه، ص 143

[47] تشارلز فرغسون: لساني أمريكي ولد في جويلية سنة 1921، درس في الولايات المتحدة الأمريكية في جامعة " ستانفور" يعد من مؤسسي علم اللغة الاجتماعي له دراسات كثيرة حول اللغة في المنطقة الأثيوبية جمعها في كتاب له صدر سنة 1976م، لكنه اشتهر بمقالته التي نشرها في إحدى المجلات الأمريكية عام 1959م، شرح فيها مصطلح الثنائية اللغوية، توفي في 02 سبتمبر 1998.

[48] فيشمان: لساني أمريكي ولد سنة 1926 نشأ ودرس في فيلادلفيا يعد من المؤسسين والمجددين في مجال علم اللغة الاجتماعي إلى جانب بريلنغ 1970 وبراید 1971، اختص بدراسة اللغة العرقية والثنائية اللغوية كما درس لغة الأقليات خاصة لغة (Yedesh) إحدى اللغات في مقاطعات فيلادلفيا ونيويورك، تابع دراساته في جامعة " بنسلفانيا" من سنة 1944 إلى سنة 1948م، تحصل على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع النفسي من جامعة " كولومبيا" شغل العديد من المناصب منها: أستاذ بمدرسة اللسانيات التطبيقية بنيويورك من 1950 إلى 1955 اشتهر بتطويره لمفهوم الثنائية اللغوية بعد ما جاء به فرغسون وذلك من خلال ربطه بالازدواجية اللغوية.

[49] كودريك: هو لساني أمريكي ولد سنة 1938م، اختص بدراسة علم اللغة الاجتماعي، وكان من المجددين في هذا الحقل من الدارسات فقد درس ظاهرة الثنائية اللغوية حيث أضاف سنة 1976م اختلاف المكانة كعامل رئيسي لتحقيق الثنائية اللغوية وذلك في إطار مقاربته (لغة/ هيمنة).

[50] Foued Laroussi, Plurilinguisme et identités au Maghreb, Université de Rouen, N 233, 1997, p 17

[51] ينظر الإجابة عن سؤال الصحفي "كيف تفسرون بعد ستة وثلاثين سنة من الاستقلال بقاء اللغة موضوعا في غاية الحساسية في الجزائر؟" Le matin, n 1954, le 08/07/1999

[52] صالح بلعيد، في النهوض باللغة العربية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008